﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾

[آل عمران: 188]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين نبذِ اليهود ما كُلّفوا ببيانه، وفرحهم بما خادعُوا به المسلمين

بعد أن بيَّن اللّهُ ﷻ في الآية السَّابقة، اختلالَ أمانةِ أهل الكتاب في تبليغ الدِّين، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ تكملةً لأحوالهم؛ حيث يفعلون الشَّرَ، ويُوغلون في الظُّلم، والصَّدِّ عن سبيل اللّه، ثمَّ يترقَّبونَ ثناءَ النَّاسِ على سوء صنيعهم، ويتطلبَّونَ المَحمدَة على ما لم يفعلوه من الخَير، و"إيذاء أهل الكتاب للنّبيّ كثيرٌ، والعجيبُ أن يطعنواْ في الدّين، وهم قد أمرُوا بأن يشرحُواْ للنّاس، ويُبيّنوا حقيقةَ النّبيّ ﷺ وصفتَه الّتي في كتبهم، ولكنّهم فرحُواْ بما أوتواْ وكتمُواْ ما أُنزل عليهم"[1]، ومن تطلّب المدحَ بما لم يفعل، فهو مغرورٌ مخدوعٌ، ولا يمكنُه النّجاةُ من العذابِ المحتوم، جزاءَ ما قدّمت يداه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمَآ أَتَواْ﴾: معناها بما فعلوا في إضلال النّاس، "وتلك طبيعة الضّال دائما، فالضّال يفرح بكلّ ما يعمله، ويزيَّنُ له سوءُ عملهِ فيراهُ حسنًا، ويحبّ أن يُحمد بما لم يفعل"[2]، و﴿بِمَآ أَتَواْ﴾ هي قراءة أبيّ بن كعب، وقرأ النّخعيّ ﴿بِمَآ أَتَواْ﴾ أي أَعطوا[3]، وقراءة سعيد بن جبير: (أُوتُواْ) بمعنى: (أُعطوا) بضمِّ الهمزة والتّاء، وعلى قراءته يستقيم المعنى الّذي قال، وهو أنّ" الآية في اليهود، فرحوا

(1) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/319.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1543.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/319.

بما أعطى اللّه آل إبراهيم من النّبوءة والكتاب، فهم يقولون: نحن على طريقهم، ويحبّون أن يحمدوا بذلك، وهم ليسوا على طريقتهم"[1]، ومعنى اللّفظ في الآية متّصل بمعناها العامّ، "فهم أهلُ الكتاب أُنزل عليهم الكتاب، فحكَمُوا بغير الحقّ، وحرّفوا الكلمَ عن مواضعه، وفرِحُوا بذلك، فرحوا بأنّهم كفرُوا بمحمّد، وما أنزل إليه، وهم يزعُمُون أنّهم يعبدون اللّه، ويصومون ويصلّون ويطيعون اللّه، فقال تعالى لمحمّد: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ كفروا باللّه، وكفروا بمحمّدٍ"[2]، فذلك ما فعلوه على الحقيقة.

2) ﴿بِمَفَازَةٖ﴾: المَفازةُ من الفوز: الظَّفَرُ بالخير، مع حصولِ السَّلامة، وقولُه تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾، فهي مصدرُ فازَ، والاسمُ: الفَوْزُ؛ أي: لا تحسبَنَّهم يَفوزونَ ويتخلَّصونَ من العذاب، يعني: ليسوا بمنجاةٍ من العذاب، وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١﴾ [النبأ: 31]؛ أي: فوزًا، أو مكانَ فوزٍ، ثم فُسِّرَ فقال: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢﴾ [النبأ: 32][3]، وقوله: ﴿بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾؛ أي بمنجاة منه؛ لأنّ النّجاةَ من أعظم الفلاح، وسببُ منجاتهم العملُ الصّالحُ، ولهذا فسّر ابن عبّاس رضى اللّه عنهما المفازةَ بالأعمالِ الحسنةِ، "ويجوزُ بسببِ فلاحهم؛ لأنّ العملَ الصّالحَ سببُ الفلاح، وهو دخولُ الجنّة، ويجوزُ أن يسمّى العمل الصّالح في نفسه مفازة، لأنّه سببُها"[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيان المصير المخزي لأهل الكتاب، الطّامعين في الحمد بما لم يفعلوا

هذا فريقٌ آخرُ من أهلِ الكتاب عبَّرَ عنهم بيانُ اللّهِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، للتَّوصُّلِ إلى أنّهم جَمعُوا بين فعلِ الشَّرِّ وقولِه، والفَرَحِ بذلك، ومحبَّةِ الثَّناءِ على فعلِ الخيرِ الَّذي ما فعلوه[5]، وخلاصة المعنى: أنّه يقول: لا تظنّنّ فرحَهم بما كان منهم من الأعمال، سيؤول بهم إلى النّجاة في العقبى، وهم مخطئون في اعتبار أنفسهم من الصّلحاءِ المرضيين، فهم يحبّون أن يحمدُواْ بما لم يفعلُوا، ويتكلّفون

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/552.
(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 3/838.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 647 - 648، وابن منظور، اللّسان: (فَوَزَ).
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 4/140.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 2/126.

التّقوى والصّلاح، وما هم بالأتقياء ولا بالصّلحاءِ، بل تراهم يسلكون مسلكًا من التّظاهر الزّائف، والرّياء البرّاق، فلا تحسبنّهم بمنأى عن العذاب، في يوم الحساب؛ لأنّ أعمالهم ستردّ عليهم، وتكون هباءً منثورًا، وسيؤولون إلى العذابِ الشّديدِ، والهوان الأكيد، لمزاولتهم الرّياء وقيامهم بتزييف الحقائق[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ القراءة القرآنيّة في إثراءِ المعنَى:

المعنيُّ بقراءة الياء الفرحون، والمعنيُّ بقراءة التاء النبيّ محمَّدٌ ﷺ

وفي قولِه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ قراءتان[2]: الأُولى: (لا يَحسَبَنّ) بالياء، والثّانية: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتّاء، فمن قرأ بالياء؛ فمعناه: لا يَحسَبَنَّ الفارِحونَ فَرحَهم مُنجيًا لهم من العذاب، ومن قرأ بالتّاء؛ فمعناه: لا تَحسَبَنّ يا محمَّدُ ﷺ الفَارحين فرَحَهم، بمفازةٍ من العذاب، وخبرُه في الباء[3].

تحتمل قراءة التاء العموم؛ ليَعُمَّ كلَّ مُخاطَب، وفيه تشويقُ السَّامعِ إلى سماعِ المَنهيِّ عن حُسبانه

ويجوز على قراءةِ الجُمهور: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ - بتاء الخطاب - أن يكون خطابًا لغيرِ مُعيَّن، ليَعُمَّ كلَّ مُخاطَب، ويكونَ تكرارُ فعلِ الحُسبان في قولُه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ اعتراضًا بالفاءِ أيضًا، والخطابُ للنبيِّ ﷺ مع ما في حَذفِ المفعولِ الثَّاني، لفعلِ الحُسبانِ الأوَّل، وهو محلُّ الفائدة، والبلاغة الرَّاقية من تشويقِ السَّامعِ إلى سماعِ المَنهيِّ عن حُسبانه[4].

توجيه قراءة ضمّ الباء في قولِه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ قراءتان[5]: الأُولى: بالتَّاءِ

(1) ابن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 87 (بتصرّف).
(2) الأولى قراءة ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبي عمرو، وأبي جعفر، والثّانية قراءة الباقين من العشرة، ينظر: الفارسيّ، الحجّة: 3/101، وابن الجزَري، النّشر: 2/244.
(3) ابن زنجلة، الحُجّة، ص: 186 - 187، وابن الباذش، الإقناع: 2/625، ومكيّ، الكشف: 1/369.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/194 - 195.
(5) الأولى: قراءة الجمهور، والثّانية: قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ابن مهران، المبسوط، ص: 149، وابن فارس، الحُجة: 3/100 - 101.

وفتحِ الباء، إعادةُ توكيد، والثَّانيةُ: بالياءِ وضمِّ الباء، خبرًا عن الفارحين؛ أي: فلا يَحسَبُنَّ أنفُسَهم[1]، وأفادتْ قراءةُ الجمهور بفتح الباء المُوَحَّدة، في قولِه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾، أنَّ الفعلَ لخطابِ الواحد، وهو إعادةُ تَوكيد، وأفادتْ قراءةُ غيرِهم، بضمِّ الباءِ الموَحَّدَة في قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ أنَّ الخطابَ للجَمعِ، وحيثُ إنَّ الفريقين قَرَأا أوَّلَه – بياءِ الغَيْبة – فَضَمُّ الباء عندئذٍ يجعلُ فاعلَ (يَحسَبنَّ) ومفعولَه مُتَّحدَيْن، أي: لا يَحسَبونَ أنفُسَهم، واتِّحادُ الفاعلِ والمفعولِ به للفعلِ الواحدِ من خصائصِ أفعال الظَّنِّ، كما هو معلومٌ، وكما هو هنا[2].

سرّ التعبير بالاسم الموصول:

عمومُ هذه الآيةِ يتناولُ خيبةَ فَرَحِ كُلّ مؤمّل، أن يَحمدَه النَّاسُ بما لم يفعل

جاء البيانُ الإلهيُّ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾؛ ليُعبِّرَ عنِ المذكورينَ، أوْ عن مشاهيرِهم، من أهلِ الكتاب – واليهود خاصَّةً – بما هو حالُهم العجيبةُ مِن حالِ مَن يَفعل الشَّرَّ والخِسَّةَ، ثمّ لا يقفُ عند حدِّ الانْكسار لما فعلَ، أو طلبِ السِّترِ على شَنعتِه؛ بل يرتَقي فيَترقَّبُ ثناءَ النَّاسِ على سوءِ صُنعِه، ويتطلَّبُ المحمدَةَ عليه، فالموصول هنا بمعنى المعرف بلام العهد؛ لأنه أريد به قوم معينون من اليهود أو المنافقين[3].

فقد وردَ عنِ ابن عباس – ﷺ – أنَّه قال: «إنَّما دعا رسولُ اللهِ ﷺ يهودَ، فسألَهم عن شيءٍ، فَكتموه إيَّاه، فأخبرُوه بغيرِه، وأرَوْه أنَّهم أخبروه بما سألَهم عنه، ليستَحمِدوا بذلكَ إليه، وفَرِحوا بكتمانِهم إيَّاه ذلك، فنزلتْ فيهم هذه الآية»[4]، ووردَ أنَّ المرادَ بهم المنافقونَ، كما روى أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ – ﷺ – : "أنَّ رجالًا من المنافقينَ كانوا إذا خرجَ رسولُ اللّه ﷺ إلى الغزوِ، تخلَّفوا عنه، وفرِحُوا بِمَقعدِهم

(1) النّيسابوريّ، باهر البرهان: 1/340، وابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن: 1/233.

(2) ابن خالويه، إعراب القراءات السّبع: 1/125، وابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن: 1/233، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/195.

(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/193.

(4) البخاريُّ، الحديث رقم: 4568، ومسلم، الحديث رقم: 2778.

خلافَ رسول الله ﷺ، فإذا قدمَ رسولُ الله ﷺ من الغَزْوِ اعتَذروا إليه، وحَلَفُوا وأَحَبُّواْ أن يُحمَدُوا بما لم يَفعَلوا؛ فنزلتِ الآية"[1]، ويمكنُ الجمعُ بين هذين القولَيْن بأن تكونَ الآيةُ نزلتْ في الفريقَيْن معًا، وعمومُ هذه الآيةِ أوْلى بأن يَتناولَ كلَّ مَنْ أتَى بحسنَةٍ، ففرحَ بها فَرَحَ إعْجاب، وأحبَّ أن يَحمدَه النَّاسُ، ويُثْنُواْ عليه بما ليس فيه.

سرّ إعادة فعل الحسبان:

إعـــادة الفعل (تَـحـسَـبَنَّ)؛ لتوكيدِ الحكم الـــواقـــع على اليهود وتقريرِه، وإلصاقِه بهم

وقوله تعالى ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، هو بدل من قوله سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾، وإعادة الفعل ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، هنا لتوكيدِ الحكم الواقع عليهم وتقريرِه، وإلصاقِه بهم، بعد أن طال الفصل بالمفعول الأوّل ومتعلّقاته، بين الفعل (حسب) ومفعوله الثّاني[2]، وعلّة ذلك أنّه إذا طال الفصلُ من الكلام، وكان أوّله يفتقرُ إلى تمام، لا يفهم إلّا به؛ فالأولى في باب الفصاحة، أن يعادَ لفظ الأوّل مرّة ثانيّة؛ ليكون مقارنا لتمام الفصل؛ كي لا يجيء الكلام منثورًا؛ فالإعادة أحسنُ في حكم البلاغة والفصاحة؛ فإن لم يُعد اللفظُ مرّة ثانيّة، لم يأتِ على الكلام بهجةٌ ولا رونقٌ، وهذا لا يتنبّه لاستعماله إلّا الفصحاء، إمّا طبعًا وإمّا علمًا[3].

بلاغة الإيجاز في حذف المفعول:

وجه الاستغناء بالمذكور دلالة ما بعده عليه، وليذهب العقلُ كلّ مذهبٍ فيما يتناسب مع وصفه تعالى لهم

جاءَ تركيب الآيةِ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ على نَظمٍ بديعٍ، إذْ حُذِفَ المفعولُ الثّاني، لفعلِ الحُسبانِ الأوَّل، لدَلالةِ ما يدُلُّ عليه وهو مفعولُ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾، والتَّقديرُ: لا يحسبَنَّ الَّذين يفرحون أنفُسَهم بمفازةٍ[4]، و"المفعول الثّاني محذوفٌ دلّ عليه

(1) البخاريُّ، الحديث رقم: 4567، ومسلم، الحديث رقم: 2777.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 2/669.
(3) ابن الأثير، المثل السائر: 2/155.
(4) العكبري، التبيان: 1/162، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/194.

ما بعده، وتقديرُ الكلام هكذا: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾، موفّقين أو مهتدين، أو صالحين، وحذف لدلالة ما بعده عليه، وليذهب العقلُ كلّ مذهبٍ فيما يتناسب مع الوصف الّذي وصفهم سبحانه به، وهو أنّهم يزيّنون أعمالهم، ويرغبُون في المدح الكاذب، فإنّ ذلك هو الضّلالُ البعيدُ، وليُرتّب السّامعُ عليه ما شاء من عدم الهداية، وعدم التّوفيق، والبعد عن الخير والنّفع، فكلّ ذلك وغيره، يتضمّنه الكلامُ المحذوفُ"[1].

نكتة تصدير الوعيد بالنّهي عن الحُسبان:

وجه التصدير بالنهي؛ للتّنبيه على بُطلان آرائِهم، وقطعِ أطماعِهمُ

جاء الوعيدُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، بعد تصديرِهِ بالنَّهي عن الحُسبان في قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾، للتَّنبيه على بُطلان آرائِهمُ الرَّكيكَة، وقطعِ أطماعِهمُ الفارِغة؛ حيث كانوا يَزعُمونَ أنَّهم يَنجُون بما صَنعُوا من عذابِ الآخرة، كما نَجَوْا به من المؤاخَذةِ الدُّنيويَّة، وعليه كان مَبْنَى فَرَحِهم.

وجه النّهي التّعريض بحُسبانِهمُ المذْكور، لا لاحتمالِ وُقوعِ الحُسبانِ من جهتِه ﷺ

وأمَّا نَهيُه ﷺ فهو للتَّعريضِ بحُسبانِهمُ المذْكور، لا لاحتمالِ وُقوعِ الحُسبانِ من جهتِه ﷺ.

دلالة حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾:

معنى (من) البدلية، أو تضمين معنى (عن)

قال ابن عاشور: "ولما كانت المفازة مجملة بالنسبة للفوز الحاصل فيها بَيَّن ذلك بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، وحرف ﴿مِّنَ﴾ معناه البدلية، مثل قوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية: 7]، أو بمعنى (عن) بتضمين (مفازة) معنى منجاة"[2].

سرّ تقديم الجار والمجرور:

وتقديم الجار والمجرور ﴿وَلَهُمْ﴾ في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ "

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1543.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/194.

للتنبيه على أنه خبر لانعت حتى يستقر بمجرد سماع المبتدأ العلم بأن ذلك من صفاتهم فلا تلهو النفس عن تلقيه"[1].

وجه التقديم التنبيه على خبريّة الجملة؛ لإثبات صفة العذاب فيهم

بلاغة إيثار صيغة الصفة المشبّهة على صيغة المفعول:

والأليم فعيل بمعنى مفعول؛ لأن الأكثر في هذه الصيغة أن الرباعي بمعنى مفعل وأصله عذاب مؤلم بصيغة اسم المفعول، أو هو فعيل بمعنى فاعل من ألم بمعنى صار ذا ألم[2]، وصيغة فعيل في الصفة المشبهة تدلّ على أنّ الوصف قد وقع على صاحبه على وجه الثبوت أو قريب من الثبوت فأصبح فيه كالسجيّة والخلقة والطبيعة؛ وعلى هذا تكون أبلغ في الوصف وأشدّ من صيغة مفعول، وهي صفة لا تُطلق إلا إذا اتّصف صاحبها بها، على خلاف صيغة مفعول فإنه قد يطلق على ما اتّصف به صاحبه أو لم يتّصف، بمعنى: أنه سيتّصف[3].

إيثار صيغة فعيل لبيان ثبوت صفة العذاب فيهم، وتحقّق وقوعها لهم

بلاغة المجاز العقلي في الفاصلة:

والتعبير عن الإيلام بصيغة اسم المفعول، أي: مؤلمٌ من يُعذَّبُ به جاء على طريقة المجاز العقلي؛ لأن المؤلم هو المعذَّب دون العذاب كما قالوا جَدَّ جِدُّه[4].

طريقة المجاز العقلي؛ لأن المؤلم هو المعذِّب دون العذاب

بلاغة التوكيد في الفاصلة:

وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، بعدَما أُشيرَ إلى عَدَم نجاتِهم من مُطلَقِ العذاب، حُقِّق أنَّ لهم فَردًا منه لا غايةً له في المُدَّةِ والشِّدَّة، كما تلوّحُ به الجملةُ الاسميَّةُ، وتقديمُ شِبهِ الجملةِ عليها، والتَّنكيرُ التّفْخيميُّ والوَصْف[5]."وفي قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، توكيدٌ للحكم الّذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ

وجه التوكيد؛ دفعُ توهّم ظنيّة فعل الحسبان بتحقّق العذاب

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 1/282.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 1/282.
(3) د. فاضل السامرائي، معاني البنية: 60 - 63.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 1/282.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/126 - 127.

مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾؛ إذ إنّ الفعل (حسب) فيه معنى الظنّ، الّذي يقع من جهة من ينظر إلى اليهود، فيرى أنّهم أصحابُ دين وأهلُ كتاب، وأنّهم في الوقت نفسه، مُنحرفُون في دينهم وكتابهم، وهم من أجل هذا أقربُ إلى العَطَبِ منهم إلى السّلامة، وأدنى إلى النّار منهم إلى الجنّة، هذا هو الحُكم الّذي يقع في ظنّ من يراهم، ويطّلع على أحوالهم، وهو ظنٌّ أقربُ إلى اليقين، ولكنّه مع هذا حكم غير قاطعٍ؛ إذ لا يملكُ هذا الحكمَ القاطعَ فى مصائر النّاس إلّا مالكُ الملك، وصاحبُ الأمر، اللّه ربّ العالمين، وقد جاء حكمُ اللّه فيهم، لتصدقَ ظنونُ النّاس بهم.. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وليس العذاب وحده، هو المصير الّذي يصيرون إليه، ولكنّه العذابُ الأليمُ"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَرَح والسُّرور

الفرقُ بين (الفَرَح) و(السُّرور)، تقدَّم بيانُ هذا الفرق في [آل عمران آية 170]، والبيانُ الإلهيُّ هنا في هذه الآيةِ استخدمَ الفعلَ ﴿يَفۡرَحُونَ﴾، بدلَ (يُسَرُّون)؛ لأنَّ الفرحَ أكثرُ ما يكونُ في اللَّذاتِ البدَنيَّة الدُّنيويَّة، وقوله: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾، "يعني: فنحاصًا وأشيع، وأشباههما من الأحبار، الّذين يفرحون بما يصيبون من الدّنيا على ما زيّنواْ للنّاس من الضّلالة"[2]، أمّا السُّرورُ: فهو ما ينكتِمُ من الفَرَح[3]، وأهلُ الكتاب والمنافقون لا يَكترِثونَ، ولا يَحتَفُونَ إلَّا باللَّذات الدُّنيويَّة، وهم في حالةٍ لا يكتُمون معها فَرَحهم؛ بل يُظهرونَه، تلبيسًا منهم على أهل الإيمان، وظَنًّا منهم كذلك، أنَّ حِيَلَهم وتَزْويرَهم للحقائق الَّتي أخْفَوْها، قد انْطلتْ على رسولِ اللّهِ ﷺ المؤيَّدِ بوحي اللّهِ تعالى وصحابتِه ﷺ، وهذا ما دعا بيانَ اللّهِ ليستخدمَ الفعلَ ﴿يَفۡرَحُونَ﴾، في سياقه المناسب له.

(أَتَوْا) و(أَعْطَوْا)

معنى ﴿بِمَآ أَتَواْ﴾ في هذه الآية الكريمة: أيّ بما فعلواْ في إضلال النّاس، وتحتمل معنى فرحواْ بما أعطى اللّهُ آل إبراهيم من النّبوّةِ والكتاب، وتحتمل معنى (أُوتُوا)،

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 2/669.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/459.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 128، و404 - 405.

بمعنى أُعْطُواْ، وقال ابن عبّاس أيضا: إنّ الآية نزلت في قوم سألهم النّبي ﷺ عن شيء، فكتموا الحقّ، وقالوا له غير ذلك، ففرحوا بما فعلوا وأحبّوا أن يحمدوا بما أجابوا، وظنّوا أنّ ذلك قد قنعَ به، واعتقدت صحّته"[1]، واللّفظ يحتمل كلّ ذلك، وينسجم به المعنى عبر السّياق، أمَّا الإعطاءُ: ففيه دليلُ التَّملُّك دونَ الإيتاء[2]، وهو بمعنَى الإنالة، كما قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾، واخْتُصَّت العَطيَّةُ، كما اختصّ العطاءُ بالصِّلة، على نحو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: 39][3]، وأهلُ الكتابِ والمنافقونَ الَّذي نزلتْ هذه الآيةُ في شأنِهم، فلا هؤلاءِ ولا أولئك، كانواْ يملكون شيئًا؛ فَمُنزِّلُ التَّوراة هو اللّٰهُ تعالى، وهم مُؤتمنونَ على القيامِ بما فيها من شريعةٍ في أنفسِهم، وفي غيرِهم بالبَلاغِ والبيَان، والجهادُ الَّذي أُمِرَ به المسلمون، وإنْ كان المنافقون منهم ظاهرًا لا باطنًا، هو فرضُ اللّٰهِ، فلا يناسبُ مع هذا كلِّه أن يُستخدَمَ الفعلُ (أعْطَوْاْ) بدل الفعل ﴿أَتَواْ﴾ الَّذي يستوعبُ دَلالاتٍ عديدةً، تتعلَّق بالذَّاتِ والأمرِ والتَّدبيرِ، والأَعْيانِ والأَعْراضِ، والخيرِ والشَّرِّ.

مَفازة ومَنْجاة

وقد سبقَ بيانُ معنى المفازة، وهي من الفوز، وهو الظَّفَرُ بالخيرِ، مع حصولِ السَّلامة، وأمَّا المَنْجاةُ، فهي من الفعلِ نَجَا، يُقالُ: نَجَا فلانٌ من فلان، وأَنْجيتُه ونجَّيتُه، قالَ تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النمل: 53]، ونَاجَيْتُه: أصلُه من النَّجاة، وهو أنْ تعاونَه على ما فيه خَلاصُه[4]، وممَّا تقدَّمَ يتبيَّن أنَّ اسْتعمالَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ ﴿بِمَفَازَةٖ﴾ أَوْلى بالسِّياقِ من كلمةِ (مَنْجاة)، فالمفازة ظَفَرٌ مع سلامة[5]، ومعناها في سياقِ النَّصِّ القرآنيّ: لا تحسبَنَّهم يَظفَرونَ، ويتخلَّصونَ من العذاب، وهذا قطعٌ بأنَّ أهلَ الكتابِ والمنافقين، لن يَظفَرواْ بخيرٍ أبدًا، ما دامُواْ على ما هم عليه من التَّحريفِ لِلْكَلِم، وتزويرِ الحقائقِ، كما هو شأنُ اليهود، أو إبطانِ الكفرِ، وإظهارِ الإيمان تجمُّلًا وخِداعًا وزُورًا، كما هو حالُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/552.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 86.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 572.
(4) الراغب، المفردات، ص: 792 - 793.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فَوَزَ).

المنافقين، وفي هذا السّياق ذكر المقريزيّ في رسائله، صنفًا من النّاس وصفهم بأنّهم شرارُ الخلق، وهم المتزيّنون بأعمال الخير يراؤون بها النّاس، وهذا الضّرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم، والفقر والعبادة، فإنّهم يرتكبُون البدع والضّلال، والرّياء والسّمعة، ويحبّون أن يُحمدواْ بما لم يفعلوا، وفي أضراب هؤلاء نزلت هذه الآية[1]، وكلمةُ (مَنجاة) لا تُحقِّقُ هذا المعنَى؛ بل كما ظهرَ من قبلُ أن النَّجاةَ قد تكونُ بمعنى التَّعاون على ما فيه الخَلاص، وقد يكونُ خيرًا أو شرًّا، وليس هذا داخلًا في مفهومِ سياقِ الآيةِ الكريمة.

(1) الآية المقصودة، هي قوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾، ينظر: المقريزيّ، رسائل المقريزيّ، ص: 108.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»